الفصل الرابع عشر

# العوامل التي تشجّع العمل الجماعي

## الكراهية

## 65

الكراهيــة هــي أكـثر العوامل الموحّــدة شمــولًا ووضوحًا. تجتذب الكراهية الشخص مــن نفسه، وتنسيه ما حوله، يومه ومستقبله، وتحرّره من الشعور بالغيرة والرغبة في الإنجاز.

وهكذا يصبــح الشخص جزءًا لا هويّة له يتحرّق بالرغبة إلى الالتحــام بالأجــزاء التي تشبهــه؛ ليكوّنوا جمهــورًا شديد الاشتعــال(*) ويرى هايــن أن ما لا يمكن تحقيقــه بالحبّ على الطريقة المسيحية يمكن تحقيقه بالكراهية الجماعية[1].

تستطيــع الحركــة الجماهيريــة أن تبدأ وتنتشــر دون أن تؤمــن بــالله، ولكنهــا لا تستطيــع أن تفعل ذلــك دون الإيمان بالشيطــان. ويمكن ، عادة، أن نقيس قوة الحركة الجماهيرية بمدى نجاحها في إيجاد شيطانها وتجسيده، عندما سُئل هتلر

(*) يقــول عبــد الله ثابــت: «... عدت من هــذه الرحلة وأكثر نقطــة في الكون بغضًــا إلى قلبي بيت أهلي المليء بالمعاصي والكفريات، ولتعود الخلافات والمناجــزات بينــي وبينهم مــن جديد، ولعظيــم ما بي مــن الإقبال على هــؤلاء والإدبار عن أهلــي، حدثت... المسؤول عني عمــا أعيشه. فأمرني بترك البيت مجــددًا، والنوم بالمساجد، وسيعطيني ما أحتاجه من المال، فامتثلت لأمره وغادرت بيت أهلي». الإرهابي 20، مرجع سابق، ص95.

(1) Heinrich Heine, Religion And Philosophy In Germany (London: Trubner & Company, 1882), p. 234.

عمّا إذا كان من الضروري إبادة اليهود قال: (كلا.. لو زال اليهود لكان علينا أن نخترعهم... من الضروري أن يكون هناك عدو ملموس لا مجرد عدو مفترض)[1]. ويروي أف. إي. فويجت قصة بعثة يابانية وصلت برلين سنة 1923م لتدرس الحركة النازية. سأل فويجت أحد أعضاء هذه البعثة عن رأيه في هذه الحركة، فكان جوابه: (إنها رائعة. أتمنى أن توجد حركة مشابهة في اليابان، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك؛ لأنه لا يوجد لدينا يهود)[2].

إن براعة الشخص الذي يعرف كيف يبدأ حركة جماهيرية ويطلقها، أو كيف يبقيها، تتجلى في معرفة كيف يختار العدو الملائم بقدر ما تتجلّى في قدرته على اختيار العقيدة الملائمة ووضع برامج لتنفيذها. لم يصبر المنظرون في الكرملين حتى تهدأ مدافع الحرب العالمية الثانية قبل أن يختاروا الغرب الديمقراطي، والولايات المتحدة على وجه الخصوص، عدوًّا للشيوعية. ومن المشكوك فيه أن أي مبادرات سلمية أو تنازلات كانت ستخفّف من حدة الهجوم العنيف الذي أخذ ينصبّ على الغرب من الكرملين.

(1) Hermany Rauschning, Hitler Speaks, (New York: G. p. putnam's sons, 1940), p. 234.

(2) Fritz August Vol 6t, unto caesar (NEW York: G. P. Putnams sons, 1938), p. 301.

ولعّل أفدح الأخطاء التي ارتكبها تشانج كاي شيك كان فشله في أن يجد العدو الجديد الملائم بعد أن اختفى جيش الاحتلال الياباني من المسرح في نهاية الحرب العالمية الثانية. كان الجنرال شديد الطموح، ولكنه كان يفتقر إلى الذكاء الذي يوضّح له أن ما أبداه الصينيون من حماسة وترابط واستعداد للتضحية بالنفس لا ترجع إلى شخصه هو، بل إلى وجود الشيطان الياباني المحتل.

## 66

تستطيع الكراهية الجماعية أن توحّد العناصر المتنافرة. بل إن هذه الكراهية يمكن أن توجد رابطًا مشتركًا مع عدو على نحو ينخر قواه ويضعف مقاومته. لقد استطاع هتلر أن يستغل كراهية اليهود، لا لكي يوحد ألمانيا فحسب، بل ليضعف مقاومة دول تكره اليهود، مثل بولندا ورومانيا وهنغاريا، وحتى، في النهاية، فرنسا، كما استطاع أن يستخدم كراهية الشيوعية بالطريقة نفسها.

## 67

إن الرب ربّ واحد، والشيطان في الحركات الجماهيرية شيطان واحد. وهنا لنا أن نصغي إلى هتلر، أعظم خبير في طبيعة الشياطين، وهو يقول: إن عبقرية الزعيم تتجلّى في التركيز على عدو واحد على نحو (يجعل حتى الخصوم المتنافرين داخل هذا العدو يظهرون كما لو كانوا كتلة

واحــدة)[1]. وعندمــا اختــار هتلر اليهــود شيطانًــا لحركته، فإنــه عمد إلى ملء العــالم كلّه تقريبًا خارج ألمانيــا باليهود أو عملائهم: (خلف إنجلترا يقــف اليهود، وخلف فرنسا، وخلف الولايــات المتحــدة)[2] وستالين، بدوره، آمــن بضرورة اختيار شيطــان واحــد. في الماضــي كان هــذا الشيطــان الفاشية، ثم أصبح الرأسمالية الأمريكية.

يتمتــع شيطان الحركة الجماهيرية بحضور دائم وقوي لا حدود له. وعندما سُئل هتلر عما إذا كان يبالغ في الأهمية التي يضفيهــا على اليهود؟ أجاب: (لا! لا! لا! من المستحيل أن نبالغ في وصف القوى الهائلــة للعدوّ اليهوديّ)[3]. وهكذا يصبح أي فشــل داخل الحركة من فعــل الشيطان، وأي نجاح تحقق فمن الشيطان ومخططاته.

ويبــدو، ختامًا، أن الشيطان المثالي لا بدّ أن يكون أجنبيًّا. ومــن هنــا فإنه لا بدّ، لكــي تكتمل الصورة من منــح الشيطان المحلي أصولًا أجنبية. كان بوسع هتلر، بسهولة، أن يدفع اليهود الألمــان بوصمة الأجانب. وقد ركّزت الحركــة الروسية الثورية

(1) Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Houghton Mifflin Company, 1943), p. 118.

(2) Quoted By Herman Rauschning, Hitler speaks (New York: G. P. Putnam's Sons, 1940), p 234.

(3) Ibid.

على الأصول الأجنبية للاستقراطية الروسية[1]. وخلال الثورة الفرنسية اعتُبر الارستقراطيون (أحفاد الألمان المتوحشين، أما الفرنسيون العاديون فكانوا أحفاد الرومان والفرنسيين القدامى المتحضرين[2]) وفي أثناء الثورة الإنجليزية اعتبر الملكيون (من النورمان المنحدرين من الغزاة الأجانب)[3].

## 68

نحن، عادة، لا نبحث عن حلفاء عندما نحبّ. حقيقة الأمر أننا نعدّ من يشاركوننا حُبّنا منافسين ومعتدين، إلا أننا، دومًا، نبحث عن حلفاء عندما نكره.

من طبيعة الأمور أنه يجب أن نبحث عن آخرين يقفون معنا عندما تكون لدينا ظلامة مشروعة تجعلنا نتوق إلى الانتقام من أولئك الذين ظلمونا. إلاّ أن الشيء المُحيّر هو أنه حتى عندما لا تنبع كراهيتنا من ظلامة واضحة ولا تقوم على أساس، فإن الحاجة إلى حلفاء تصبح أشدّ إلحاحًا. إن الكراهية غير المنطقية هي التي تدفعنا إلى الانضمام إلى أولئك الذين يكرهون كما نكره، وهذا النوع من الكراهية هو الذي يتحول إلى عامل فاعل من عوامل الوحدة.

(1) Crane Brinton, the Anatomy of Revolution (New York: w. w. Norton & Company, Inc., 1938) p. 62.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

مـن أين تأتي هـذه الكراهية غير المنطقيـة ولماذا تتحوّل إلى عامـل توحيد؟ إنهـا تعبير عن محاولة يائسـة من جانبنا لإخفـاء شعورنا بالنقص، أو بقلة أهميتنـا، أو بالذنب، أو بأي عيـوب أخرى تنبـع من داخلنـا. يتحـول احتقارالنفسـ، هنا كراهيـة للآخرين، مع محاولة مستميتـة لإخفاء هذا التحوّل. من الواضح أن أكثر الطرق فاعلية لتحقيق التحوّل هو أن نجد أكـبر عدد ممكن مـن الأشخاصـ الذين يكرهـون كما نكره. نحتاج هنـا إلى قدر كبير مـن التوافق، وجهدنـا لتحقيق هذا التوافـق لا يتعلّـق بنوع العقيـدة التي نبشر بها، بـل بالكراهية غير المنطقية التي نود أن تعمّ الجميع.

حتّى عندما تكون هناك ظلامة مشروعة، فإن كراهيتنا لا تنبـع من الظلم الذي مسنا بقدر ما تنبع من إحساسنا بالعجز والفشـل والجبن، بعبـارة أخرى من احتقارنـا أنفسنا. عندما نشعر بالتفوق على أعدائنا فإننا نعاملهم باحتقار، وربما بشيء من الشفقة، ولكننا لا نكرههم. إن العلاقة بين الظلم والكراهية ليست واضحة ومباشرة، كما يتضح لنا من الحقيقة التي تثبت أن الكراهية التـي يبعثها الظلم لا توجّه، دائمًا، نحو الظالمين. كثيرًا ما يحدث عندما يظلمنا شخص أن تتحوّل كراهيتنا إلى شخص آخر، أو جماعة أخرى لا علاقة لها بالأمر، من السهل استثـارة الروسـ الذين يعانـون القمع على يـد بوليس ستالين

السرّي ضد (تجار الحــروب الرأسماليين)؛ وقد انتقم الألمان الذيــن شعروا بالظلم الذي أوقعته بهم معاهدة فرساي بإبادة اليهود؛ وعمد الزولو الذين كان البوير يضطهدونهم في جنوب أفريقيا إلى ذبح الهندوس؛ ولجأ رعاع البيض الذين يحتقرهم الأرستقراطيــون البيض في جنوب الولايــات المتحدة إلى شنق السود(*). إن احتقار النفس يولّد (أكثر النزعات إجرامًا؛ لأنه يجعــل الشخص ينطوي على كراهية قاتلة للحقيقة التي تدينه هو، وتظهر عيوبه)[1].

## 69

تتّضــح لنــا الحقيقة التــي تقــول: إن الكراهيــة تنبع من احتقــار النفس أكــثر مما تنبع من الظلامــة المشروعة عندما نتفحّص العلاقة الحميمة بين الكراهية وتأنيب الضمير.

لا توجد طريقة أكثر فاعلية لكره شخص ما من إيقاع ظلم فــادح بهذا الشخص. إن كون الآخرين يملكون ظلامة حقيقية تدعوهــم إلى كرهنــا يجعلنا نكرههــم أكثرمما لــو كنّا نملك ظلامــة حقيقية ضدّهــم. ونحــن لا نجعل النــاس متواضعين وديعين نادمين على تصرفاتهم عندما نكشف لهم عن ذنوبهم؛

(*) يمكننــا أن نضيف هنــا أن الإسرائليين انتقموا من المحرقة الألمانية بصب جام غضبهم على الفلسطينيين (المترجم).

(1) Pascal, Pensees.

الأرجح أننا سنثير فيهم مشاعر الكبرياء والعدوانية. إن شعورنا أننا على حق مطلق لا يعدو أن يكون ضجة عالية نحاول أن نغرق فيها شعورنا المترسخ بالذنب الكامن في أعماقنا.

هناك شعور بتأنيب الضمير خلف كل الكلمات والأفعال المتعالية على الآخرين وخلف كل إعلان عن الرضا التام عن النفس.

## 70

نصبّ المزيد من الوقود على كراهيتنا عندما نظلم الذين نكرههم. وعلى النقيض، فنحن عندما نتعامل مع العدو بتسامح نضعف من كراهيتنا له.

## 71

أكثر الطرق فاعلية لخنق تأنيب الضمير إقناع أنفسنا والآخرين أن الذين أخطأنا بحقهم هم، بالعقل، مخلوقات شريرة تستحق أقصى العقوبات، بما فيها الإبادة. ليس بوسعنا أن نشفق على الذين ظلمناهم، ولا أن نتصرف إزاءهم بحياء. لا بدّ أن نكرههم ونضطهدهم وإلا أبقينا الباب مفتوحًا أمام احتقار النفس.

## 72

يعاني أتباع الأديان السامية شعورًا بالذنب عندما تتسع الهوة بين تعاليم دينهم وواقعهم المليء بالمعاصي. وعندما يدخل

التطرف الصورة، فإن الشعور بالذنب يتحوّل إلى كراهية سافرة. وهكذا نجد أنه كلما ازداد التطرف عند أتباع مذهب ما، مهما كان المذهب نفسه ساميًا، كلما نما لديهم الشعور بالكراهية.

## 73

إن كراهية عدو لديه جوانب طيّبة أسهل من اختيار عدو سيئ تمامًا. يصعب علينا أن نكره أولئك الذين نحتقرهم احتقارًا تامًا. خلال الحرب العالمية الثانية، كانت لدى اليابانيين ميزة على الغرب، إذ كان اليابانيون معجبين بالغربيين أكثر مما كان الغربيون معجبين بهم، ولهذا فقد كان بوسعهم كراهية الغربيين بحدّة لم توجد عند الغربيين. وقدرة الأمريكيين على الكراهية أقلّ من قدرة غيرهم بسبب شعورهم بالتفوق على كل الأجانب. إن كراهية الأمريكي أمريكيًّا آخر (الرئيس هوفر(*) أو الرئيس روزفلت(**) مثلًا) أكثر عنفًا من

(*) تولّى هيربرت هوفر (1874 – 1964م) رئاسة الولايات المتحدة بين سنتي 1929 – 1932م) وفي عهده حصل الانهيار الاقتصادي الشامل الذي سُمّي الكساد العظيم (المترجم).

(**) تولى فرانكلين روزفلت (1882 – 1945م) الرئاسة بعد هوفر وكان الرئيس الأمريكي الوحيد الذي انتخب ثلاث مرات، وتمكن عن طريق سياسات مالية مبتكرة من القضاء على الكساد، وقاد الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية ويعدّ من أعظم الرؤساء الأمريكيين (المترجم).

أي كراهية يمكن أن يشعر بها نحو الأجانب. ومن اللافت للنظر أن الجنوب المتخلف في الولايات المتحدة يشعر بكراهية الأجانب بدرجة لا توجد في بقية البلاد. وعندما يبدأ الأمريكيون في كراهية الأجانب من أعماقهم، فسوف يكون هذا بمنزلة اعتراف بأنهم فقدوا إيمانهم بتفوق أسلوبهم في الحياة(*).

إن امتزاج الإعجاب بالكراهية يتّضح في نزعتنا إلى تقليد من نكرههم. وهكذا نرى أن كل حركة جماهيرية تصوغ نفسها على نحو يناسب شيطانها المختار. مارست المسيحية في عنفوانها سلوكًا شبيهًا بسلوك المسيح الدجّال. ومارس اليعاقبة في فرنسا كل شرور الطغيان الذين ثاروا عليه. وحققت روسيا السوفيتية أقصى ما يمكن أن يحققه الاحتكار الرأسمالي. وقد جعل هتلر من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) نموذجًا اتبعه وطبقه بكل تفاصيله[1].

من المفزع حقًّا أن نلحظ كيف يعمد المظلومون، دومًا، إلى صياغة أنفسهم على شكل ظالميهم. وما يقال من أن الشرّ يبقى حتى بعد أن يذهب فاعلوه صحيح، ومرجع ذلك أن الذين لديهم سبب لكراهية الشر يشكلون أنفسهم على شاكلته، ومن

(*) هل بقي هذا الموقف الأمريكي من الأجانب بعد تفجيرات سبتمبر 2001؟ سؤال أتركه مفتوحًا! (المترجم).

(1) Herman Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. p. Putnam's sons, 1940) p. 235.

ثم يديمون وجوده. من الواضح، إذًا، أن تأثير التطرف يتجاوز بكثير حدود قدراته، من خلال الدعوة إلى الشر ونشره، يصور المتطرّف العالم كله على مثاله. لقد وضعت المسيحية المتطرفة بصماتها على العالم القديم عن طريق احتضان أتباع جدد وعن طريق دفع أعدائها الوثنيين إلى المزيد من القسوة. وقد فرض هتلر نفسه على الدنيا بنشر النازية وبإجبار الديمقراطيات على أن تصبح متطرفة وقاسية. وروسيا الشيوعية تصوغ كلاًّ من أعدائها وأصدقائها على مثالها.

وهكذا نرى أن الكراهية وسيلة سهلة لتحفيز جماعة ما للدفاع عن نفسها، إلاّ أنها، على المدى البعيد، ذات ثمن باهظ، ونحن ندفع هذا الثمن عندما نتخلّى عن القيم التي كنّا في البداية ندافع عنها، أو عن بعضها.

تمكن هتلر، الذي أدرك عنصر الإعجاب في الكراهية، من الوصول إلى استنتاج مذهل، قال: إنه من الضروري للحركة النازية أن تستثير كراهية أعدائها الحادّة، وأن تستحقها. هذه الكراهية، في رأيه، هي الدليل على تفوّق النازية: (إن أصدق دليل على قيمة النازية وصدق عقيدتها وقوة إرادتها هو العواء الذي تقابل به من جانب العدوّ)[1].

(1) A dolph Hitler, op. cit, p. 351.

## 74

نحن، عندما نشعر بالظلم نتيجة معرفتنا بقلّة أهميتنا، لا نرى أنفسنا أحطّ من البعض وأرقى من البعض، بل نرى أنفسنا في الحضيض، وعندها نكره العالم كلّه ونصب جام غضبنا على الخليقة بأكملها.

إن المحبطين يشعرون بكثير من السعادة عندما يشهدون سقوط المحظوظين وفضائح المثاليين. يرى المحبطون في الانهيار الشامل وسيلة لإقامة الإخاء بين الجميع. الفوضى، كالقبور، مكان يضمن المساواة. إن شعور المحبطين المتحرق بضرورة إيجاد حياة جديدة ونظام جديد يغذيه الاعتقاد أنه لا بد من هدم القديم تمامًا قبل البدء في بناء الجديد. أن تشوقهم إلى عهد جديد مليء بكراهية كل ما هو قائم، والتطلع إلى نهاية العالم.

## 75

بوسع الكراهية المتقدة أن تمنح الحياة الفارغة معنى وهدفًا. ومن هنا، فإن الأشخاص الذين يعانون تفاهة حياتهم يعمدون إلى البحث عن معنى جديد، لا عن طريق اعتناق قضية مقدّسة فحسب، بل باحتضان ظلامات متطرفة. وتتيح الحركة الجماهيرية للمحبطين تحقيق الهدفين.

## 76

قال باسكال: (الناس، بطبيعتهم، يكرهون بعضهم بعضًا) وقال: (إن الحب والإحسان ليسا سوى صورة خارجية مزيفة تخفي في قاعها الكراهية)[1]. وسواء كان ما قاله باسكال صحيحًا أو لم يكن، فإنه يصعب علينا أن ننكر أن الكراهية عامل لا يغيب عن تصرفاتنا الفردية والجماعية. والكراهية نتيجة طبيعية لانهيار ولائنا وعواطفنا وآمالنا. ومن الناحية الأخرى، فإنه بوسعنا أن نستغل الكراهية لصنع الولاء والحماس والأمل. قال مارتن لوثر: (عندما أشعر أن قلبي بدأ يبرد، وأعجز عن الصلاة بحرارة، أجلد نفسي بتصوّر جحود أعدائي وقلة إيمانهم، أعني البابا وأعوانه.. عندها يمتلئ قلبي بالغضب الصادق والكراهية، وأستطيع أن أصلي بقوة ودفء: «تبارك اسمك، وجادت مملكتك، وتمت إرادتك! كلما ازداد غضبي زادت حماستي للصلاة»[2].

## 77

إن الوحدة والتضحية بالنفس، في حد ذاتهما، حتى عندما يكونان نتيجة عوامل سامية يخلقان قدرة على الكراهية. حتى

(1) Pascle, op. cit.

(2) Luther, «Table Talk, Number 2387 a- b» Quoted In Frantz Funck-Brentano, Luther (London: Jonathan Cape Ltd. 1939), p. 319.

عندما يتحد الناس بقوة لنشر التسامح والسلام على الأرض، فإنه من المتوقع ألا يشعروا بأي تسامح إزاء أولئك الذين لا يشاركونهم معتقدهم.

لا يمكن من دون غربة عن النفس أن تكون هناك تضحية بالنفس أو التحام كامل في المجموع وهذه الغربة تخلق، كما سبقت الإشارة، نزعة نحو المواقف المتطرفة، التي تشمل الكراهية الحادة. وهناك عوامل أخرى تساعد على نشوء الكراهية في محيط الوحدة والتضحية بالنفس. إن الاستعداد للتضحية بالذات يجعلنا قادرين على القسوة، خالية من الرحمة في مواجهة الآخرين. هناك اعتقاد شائع أن المؤمن الصادق، والمتدين بصفة خاصة، هو إنسان متواضع. إلا أن الحقيقة هي أن التخلص من النفس وإذلالها قد يقود إلى الغرور والكبرياء. ينزع المؤمن الصادق إلى اعتبار نفسه واحدًا من الصفوة المختارة، ملح الأرض، نور العالم العظيم المتستر تحت رداء التواضع، الشخص الذي سيرث الأرض ويرث ملكوت السماء[1]. أنه يرى أن الذين ليسوا من عقيدته من الأشرار، وكل من يرفض الاستماع إليه يجب أن يهلك[*].

---

(1) Matthew 5.

(*) يصف عبدالله ثابت شعوره عندما أصبح واحدًا من الجماعة المتطرفة:

«يا إلهي.. أيّ مجدٍ هذا الذي أنا فيه، فمن كل حرماني الذي مضى إلى جنديّ في سبيل الله، يخطط ويعمل ويقدم ويؤخر لإقامة شريعة الله بدولة =

وهنــاك نقطة أخــرى: عندما نهرب مــن أنفسنا ونصبح جزءًا من مجموع، فإننا لا نتخلى عن المزايا الشخصية فحسب، بل من كل مسؤوليــة شخصية. لا يستطيع أحد أن يتوقع حدود القسوة والعنف التي يمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يتحرّر مــن مخاوفه وتردده وبقايــا الطيبة في نفســه، أي من الأشياء التــي تذهب مــع ذهاب المسؤوليــة الشخصيــة. عندما نصهر استقلالنا في مجموع الحركة الجماعية، فإننا نعثر على حرية جديــدة: حرية الكراهية والتخويف والكــذب والتعذيب والقتل والخيانــة دون خجل أو نــدم. وهنا، بلا شــك، نجد جزءًا من جاذبيــة الحركة الجماهيرية. نجد هنــا (الحق في الانتهاك) الــذي يزعم دستوفسكي أن لــه جاذبية لا تقاوم[1]. كان هتلر يحتقــر القسوة التــي يمارسها شخص بإرادتــه المستقلة: (أي عنف لا ينبع من قاعدة روحية صلبة سوف يكون مشوبًا بالتردد والشكّ. هذا العنف يفتقر إلى عنصر الاستقرار الذي لا يوجد إلا في الموقف الجماعي المتطرف)[2].

= جديــدة. ها أنا بعد كل هذا من الطائفة المنصورة التي ينصرها الله من بــين كل الطوائف، ومن الفرقــة الناجية التي ستذهــب كل الفرق عداها للنار، وأنا من الذين يجددون للأمة دينها، ويخرجونها من الظلمات إلى النور، ويحيونها بعد مواتها» الإرهابي 20، مرجع سابق ص91.

(1) Fedor Dostoyevsky, the Possessed, Part Ic, Chap. 6.

(2) Adolph Hitler, op. cit, p 171.

وهكـذا نـرى أن الكراهية، كمـا تكون وسيلـة للتوحيد تكون نتيجـة له. يقول رينان: إننا لم نسمع بأمة رحيمة واحدة منذ بدء الخليقـة[1] ويمكننا أن نضيـف أننا لم نسمع بكنيســة رحيمة أو حزب ثوري رحيم. إن الكراهية والقسوة النابعين من الأنانية ليسا بشيء مقارنة بالسم والقسوة النابعين من التضحية بالذات.

عندمـا نرى سفك الدمـاء والرعب والدمـاء الناشئ من حماسـة نبيلـة كحـب الخالـق، أو حب المسيـح، أو حـب الأمة، والتعاطف مـع المظلومين، وهلم جرّا، فإننـا، عادة، ننسب هذه الفظائـع إلى مسلك القيـادة الأنانيـة المتعطشـة إلى السلطة. حقيقـة الأمـر، إن الوحدة التي توجدها هـذه الحماسة، لا مكر القيـادة، هي التي تحوّل النزعات النبيلة إلى واقع من الكراهية والعنف. إن تجريد الإنسان من فرديته، هو شرط أساسي لدمجه فـي المجموع، وجعله قابـلًا للتضحية بالنفس، هو إلى حد كبير، تجريد له من إنسانيته. إن قبو التعذيب مؤسسة جماعية!

## التقليد

## 78

التقليد عامل أساسي من عوامل التوحيد. لا يمكن تصور مجموعة متلاحمة تمامًا دون انتشار أنماط السلوك المتشابهة

(1) Ernest Renan, History of the People of Israel (Boston: Little, Brown, Company, 1888- 1846), vol 1. p. 130.

خلالها. إن الوحدة التي تفخر الحركات الجماهيرية بتحقيقها تعود إلى التقليد بقدر ما تعود إلى الطاعة. والطاعة نفسها تتجلّى في تقليد النموذج، كما تتجلّى في أتباع المبدأ.

على الرغم من أن القدرة على التقليد موجودة عند الناس جميعًا، إلا أنها قد تكون أقوى عند البعض من البعض الآخر. والسؤال المطروح هنا يتعلق بالمحبطين. هل هناك علاقة بين الإحباط والاستعداد للتقليد؟ هل يصبح التقليد، على نحو أو آخر، وسيلة للفرار من المشكلات التي تحاصر المحبطين؟

إن مشكلة المحبطين الأساسية شعورهم بعيوب أنفسهم وانعدام فاعليتها. وهدفهم الرئيس هو التخلّص من هذه الأنفس المكروهة والمبدأ من جديد. يحاول المحبطون تحقيق هذه الرغبة إمّا بالعثور على هويّة جديدة أو محاولة القضاء على تميزهم الفردي وإخفائه، وكلا هذين الهدفين يتحقق عن طريق التقليد.

بقدر ما يقل رضانا عن أنفسنا بقدر ما تزيد رغبتنا في أن نكون مثل الآخرين. ومن هنا فنحن ننزع إلى تقليد الذين يختلفون عنا أكثر من تقليد من يشابهوننا. كما أننا نقلد أولئك الذين نعجب بهم، لا أولئك الذين نحتقرهم. إن ما نراه من نزعة للتقليد لدى المظلومين (السود واليهود) هو أمر لافت للنظر.

إن محاولة التشويش على النفس وإخفائها لا تتحقق إلا عن طريق التقليد: أن نصبح مثل الآخرين بقدر ما يمكننا. إن الرغبة في الانتماء إلى الآخر هي، في الوقت نفسه، رغبة في الإفلات من النفس.

وأخيرًا، نجد أن نقص ثقة المحبطين في أنفسهم يشجعهم على التقليد. بقدر ما نفقد الثقة في أحكامنا وفي مصيرنا بقدر ما يزداد استعدادنا لتقليد نماذج الآخرين.

## 79

إن رفض النفس في حد ذاته، حتى عندما لا يصاحبه بحث عن هويّة جديدة يمكن أن يقود إلى المزيد من التقليد. تفقد النفس المرفوضة قدرتها على إثبات تميزها، ومن ثم، تزيل العقبة التي تحول بينها وبين التقليد. إن الموقف هنا لا يختلف عن موقف الأطفال، وعن موقف البالغين الذين لا يشعرون بأي تمايز فيما بينهم، حيث يعني غياب الفردية المتميّزة ترك العقل مفتوحًا أمام التأثيرات القادمة من الخارج.

## 80

إن الشعور بالتفوق يقف حجر عثرة أمام التقليد. لو كان المهاجرون الذين قدموا إلى الولايات المتحدة قومًا متميزين، صفوة المجتمعات التي قدموا منها، لما كان بالإمكان أن

توجـد ولايات متحدة واحـدة، بل خليط مـن جماعات ثقافية وحضارية متنوعـة. إلا أن كون معظم المهاجرين كانوا من قاع السّلـم الاجتماعي ومن أشد الطبقات فقـرًا، وكانوا منبوذين ومرفوضـين، في أوطانهم القديمة، هو الـذي أدّى إلى امتزاج العناصـر المتنافـرة امتزاجًا تامًّا سهلًا. لقـد قدم المهاجرون إلى الوطـن الجديد برغبة صادقة في طرح هوية العالم القديم والـولادة من جديد في حياة جديدة، وكانـوا مزوّدين، تلقائيًا، بقدرة فائقة على التقليد وعلى تبني ما هو جديد.

لقـد كان اختـلاف الوطن الجديد عـن أوطانهم الأصلية عنصر جـذب لا تنافر: كانوا يتوقـون إلى هوية جديدة وحياة جديـدة، وكلّما كان العالم الجديـد مختلفًا كلما اتفق ذلك مع رغباتهم. وبالنسبة إلى غير الأنجلو/سكسونيين كان اختلاف اللغة عنصر جاذبية إضافيـة: تعلّم لغة جديدة يؤكد الاعتقاد بأنهم يولدون من جديد.

## 81

كثـيرًا ما يكون التقليد طريقًـا مختصرًا إلى الحلّ. نحن نقلّـد عندما لا تكون لدينا الرغبة أو القـدرة أو الوقت لتطوير حل جديد. ومن هنا فإن المستعجلين يقدمون على التقليد أكثر من أولئك الذين لا يوجد لديهم حافز على الاستعجال. وهكذا نجد أن التقليد عند المجموعة الأولى يقود إلى التماثل. وعندما

نكـون بصدد صهر أفراد في مجموعة متلاحمة يصبح التقليد عنصرًا مهمًّا في عملية الصهر.

## 82

إن التوحيـد في حـد ذاته، وسـواء كان سببـه الاقتناع أو القمـع أو الاستسـلام التلقائي، ينـزع إلى زيـادة القدرة على التقليد. إن المدني الذي ينخرط في الجهاز العسكري المترابط يصبح أكثر قدرة علـى التقليد، مما كان عليه يوم كان مدنيًّا، والشخـص الذي يتم صهره في مجموعـة متلاحمة يفقد ذاته المتميـزة ويفقد معها القدرة على مقاومةالتأثيرات الخارجية. ولعـلّ ما نلحظه عنـد الشعوب البدائية من نزعـة إلى التقليد يرجـع إلى كونهم أعضاء في قبائـل وعشائر مترابطة أكثر من كونهم في مرحلة بدائية من التطوّر.

إن قـدرة الجماعـة المتلاحمـة علـى التقليـد تشـكل في الحـركات الجماهيرية عنصـر قوة وعنصر خطـر في الوقت نفسـه. من السهـل صهر أتبـاع الحركة في المجمـوع، إلا أنهم يبقـون عرضة للتأثـيرات الخارجية، وهذا مـا يخلق الانطباع بأن المجموعة المتلاحمة تمامًا يسهل إغراؤها وإفسادها. ومن هنا نجد أن أدبيات الحركات الجماهيرية مليئة بالتحذير من تقليد النماذج الأجنبية (واتباع مناهجها الشيطانية. تعدّ هذه الأدبيات تقليد الأجانب خيانـة وردّة). (كل من يقلّد الأجنبي

يهين الأمة، شأنه شأن الجاسوس الذي يسمح بدخول العدوّ من باب جانبي)[1]. تتبع كل الوسائل لمنع أي اتصال بين الأتباع المؤمنين وبين غير المؤمنين. بل إن بعض الحركات الجماهيرية تصل إلى حد أخذ أتباعها إلى الصحراء؛ حتى يتاح للأنماط الجديدة أن تستقر في نفوسهم من دون أى مؤثرات خارجية.

إن احتقار العالم الخارجي هو الوسيلة الأكثر فاعلية لمنع أثر التقليد المخل بوحدة الجماعة. إلا أن الحركة الجماهيرية النشطة تصنع الكراهية في منزلة تفوق الاحتقار السلبي، والكراهية لا تحول دون التقليد و كثيرًا ما تحفّز عليه. أما في الجماعات الصغيرة المحاطة ببحر من الأجانب والتي تصر على الاحتفاظ بتميزتها، فيمكن للاحتقار أن يعزلها عن محيطها وأن يبقيها منطوية على ذاتها لا ترحب بأتباع جدد.

إن النزعة إلى التقليد تمنح الجماعة المتحدة المتماسكة الكثير من المرونة والقدرة على التأقلم. تستطيع هذه الجماعة تبني التجديدات وتغيير التوجهات بسهولة متناهية. إن التطوّر السريع الذي شهدته كل من اليابان وتركيا المتحدتين يختلف تمامًا عمّا شهدته الصين من تطور بطيء وتأقلم مؤلم مع العادات الجديدة. إن روسيا السوفيتية المتحدة تمامًا تستطيع

(1) Julien Benda, the Treason of Intellectuals, (New York: William Morrow Company, 1928), p. 39.

أن تتبنى أساليب وطرقًا جديدة على نحو لم يكن متاحًا لروسيا القيصرية التي لم تصل إلى الدرجة نفسها من التماسك. كما أنه من الواضح أن الشعب البدائي الذي يتمتع بتنظيم جماعي متماسك يستطيع أن يتطور بسهولة، لا تتاح للشعب البدائي الذي لا يملك سوى تنظيمات قبلية ومجتمعية منهارة.

## الإقناع والقمع

## 83

ينزع الناس - في أيامنا هذه - إلى المبالغة في تأثير الإقناع بوصفه وسيلة لنقل الأفكار وصياغة السلوك، ويعدّون الدعاية سلاحًا لا مثيل لفاعليته. وهم، من المنطلق نفسه، يعزون النجاحات المذهلة التي حققتها الحركات الجماهيرية في هذا العصر إلى الدعاية، بحيث أصبحوا يخافون من الكلمة خوفهم من السيف.

إلا أن الواقع يثبت أن كثيرًا من النجاحات الرائعة التي تنسب إلى تأثير الدعاية لا علاقة لها بالدعاية. لو كان للدعاية هذه الفاعلية الخارقة التي تنسب لها لكانت الأنظمة الشمولية في روسيا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا ستبدو مقبولة إلى حد ما. كانت ستظهر متبجحة ومتعالية، ولكن من دون الوحشية المرعبة التي مارسها البوليس السري ومراكز الاعتقالات والإعدامات الجماعية. الحقيقة أن هذه الأنظمة كانت تعتمد على القمع أكثر من اعتمادها على الدعاية.

يبـدو أن الدعايـة، وحدهـا، لا تستطيـع أن تشق طريقها إلى العقـول التي ترفضها، ولا تستطيـع أن تفرض على الناس مواقـف جديدة كل الجدة؛ ولا تستطيع أن تبقيهم على المبادئ التي كفروا بها، تتغلغل الدعاية في العقول المفتوحة لها بالفعل، وبدلاً من أن تفرض آراء جديدة، فإنها تعمل على ترسيخ الآراء الموجودة في هـذه العقول وتطويرهـا. إن الدعائي الموهوب هو الـذي يفجـر العواطف والمشاعـر التي كانـت تختمر في عقول السامعـين، وهو بهذا يحاكـي أعمق أحساسيسهـم الداخلية. وهـذا الدعائي لا يحاول فرضـ آراء، ولكنه يسعـى إلى إقناع الناس بصدق الأشياء التي كانوا يعرفونها من قبل.

إن الدعايـة، وحدهـا، لا تنجح، عـادة، إلا مع المحبطين. يجـد هؤلاء أنفسهم محاصرين بالمخاوف والأوهام التي تحول بـين مداركهم وبين العـالم الخارجي، إنهـم لا يستطيعون أن يـروا إلا ما كانوا يتخيلونـه، ولهذا تجيء كلمات الدعائيّ الذي يدغـدغ مشاعرهم، وكأنها موسيقى تنبع من أنفسهم الخفيّة. والمحبطـون، في الحقيقة، أقدر على التعـرف على مشاعرهم في الشعـارات الضخمة والكلمات الكبـيرة الجوفاء منهم على تبينها في الكلمات المتزنة المنطقية.

إن الدعايـة، وحدهـا، مهما كانـت مؤثّـرة لا تستطيع أن تبقي على إيمان الناس بعد أن فقدوه. ومن هنا تعمد الحركات

الجماهيرية عندما ترى أن الناس لم يعودوا مؤمنين بها، كما كانوا من قبل إلى إجبارهم باستخدام القوّة[1].

إن الكلمات أداة لا بدّ منها لتهيئة الأرض للحركة الجماهيرية. إلا أنه عندما تبدأ الحركة الجماهيرية نشاطها تفقد الكلمات الكثير من فاعليتها القديمة، على الرغم من أنها تظل أداة نافعة للحركة. عبر زلة لسان اعترف الدكتور جوبلز خبير الدعاية الشهير أنه (لا بدّ من وجود سيف حاد يقف خلف الدعاية إذا أريد لها أن تكون فاعلة حقًّا)[2]. بل إن جوبلز يكاد يكون اعتذاريًا عندما يقول: (لا يمكن أن ننكر أن بوسعنا أن نحقق عن طريق الدعاية المؤثرة، ما لا نستطيع تحقيقه في غيابها)[3].

## 84

عكس ما قد يتوقعه المرء، تصبح الدعاية هيستيرية، ولا عقلانية عندما تعمل جنبًا إلى جنب مع القمع، بخلاف الوضع عندما تعتمد الدعاية على فاعليتها وحدها.

كلٌّ من الذين اعتنقوا المبدأ الجديد باقتناع، والذين اعتنقوه قسرًا، يحتاجون إلى إيمان قاطع أن هذا المبدأ وحده هو المبدأ الصحيح. من دون هذا الإيمان القاطع يتحوّل

(1) Nicclo Mach, Avelli, The Prince, chap. vi.

(2) The Goebbels Diaries, (Garden city: Double day & company. Inc, 1948), p. 460.

(3) Ibid. p. 298.

الإرهابي في نظر نفسه إلى مجرم، كما أن الأتباع الذين تمَّ ضمهم قسرًا سيعدّون أرواحهم مجرد بضائع معروضة للبيع.

وهكذا نجد أن الدعاية تساعدنا على تبرير ما نفعله، لا على إقناع الآخرين، وكلما ازداد شعورنا بالذنب ازدادت حاجتنا إلى الدعاية.

## 85

إن المقولة التي تذهب إلى أن العنف يولّد التطرف صحيحة، كأختها التي تقول: إن التطرف يولّد العنف. كثيرًا ما يكون من المتعذر أن نعرف من الذي سبق الآخر، العنف أو التطرف. كل من الذين يمارسون العنف، والذين يخضعون له، ينزعون إلى تطوير عقليات متطرفة. يقول فيرريرو عن إرهابي الثورة الفرنسية: (كلما سفكوا المزيد من الدماء ازدادت حاجتهم إلى الإيمان بمبادئهم باعتبارها الحقيقة المطلقة. هذا الإيمان هو، وحده، القادر على أن يغفر لهم ما ارتكبوه من جرائم، وعلى أن يبقي طاقتهم متأججة. إنهم لم يسفكوا كل تلك الدماء؛ لأنهم آمنوا بسيادة الشعب باعتبارها حقيقة دينية مطلقة، بل على النقيض، اعتبروا إيمانهم بها حقيقة مطلقة بدافع من الخوف الذي دفعهم إلى سفك الدماء الغزيرة)[1].

(1) Guglielmo Ferrero, Principles of Power (New York: G. P. Putnam's sons, 1942), p. 100.

إن ممارسة العنف تخدم المؤمن الصادق، لا لأن الرعب يخيف الخصوم ويسحقهم فحسب، بل لأنه يقوّي إيمانه ويجعله أكثر حـدّة. إن عمليات شنق السود التي كان يقوم بها بعض البيض في جنـوب الولايـات المتحدة لم تكن ترعب السـود فحسب، بل كانت تغذي إيمان العنصريين البيض وتقوّيه.

يمكن للقمع أن يولّد التطرف، حتى في حالة المقموعين، هناك ما يشـير إلى أن الشخص الذي أجبر بالعنـف على اعتناق مبدأ ما كثيرًا ما يصبح متطرفًا في إيمانه بالمبدأ الجديد، شأنه شأن الشخص الذي آمن بالمبدأ عن اقتناع، وربما أكثر منه. إن المقولة التـي تذهـب إلى «أن الذي استجـاب برغم إرادتـه سيبقى على آرائه القديمة لا تصح في كل الأحوال. في الفتوح الإسلامية أبدى المسلمون الجدد من الحماسة للدين الجديد ما لم يبده المسلمون القدامى. ويرى رينـان أن الإسلام أصبح بفضل المسلمين الجدد «دينًا يقوى باستمـرار»[1]. إن العقيدة المتطرفة في كل الحركات تأتـي في مرحلة لاحقة على بدء الحركـة، عندما تصبح الحركة قويّة تستطيع فرض مبادئها بالإقناع والقسر معًا.

هكـذا نجد أن القمع، عندما يكون عنيفًا ومستمرًا، يملك قدرة لا تجارى على الإقناع، لا في التعامل مع البسطاء والسذج

(1) Ernest Renan, The Poetry of the celtic Races, (London: w. scott, ltd, 1896), Essay on Islamisim, p. 97.

وحدهـم، بـل في التعامل مـع أولئـك الذين يفخـرون بنزاهة مواقفهـم الفكريـة وصلابتها. عندما يصـدر الكرملين قرارًا تعسفيًّا يجبر العلمـاء والكتاب والفنانين على الاعتراف بأنهم تخلـوا عـن مبادئهم وارتكبـوا أخطاءً، فمن غـير المستبعد أن تمثـل اعترافاتهم تحولًا حقيقيًّا في مواقفهم، لا مجرد مظاهر لفظية، إننا نحتاج إلى عقيدة متطرف لتبرير جبننا.

## 86

لا تـكاد توجـد حالة واحدة لحركة جماهيريـة ذات أبعاد واسعـة وتنظيم دائم تمكنت من تحقيق مـا حققته عن طريق الإقنـاع وحده. يلاحـظ البروفسـور، ك. سـ. لا توريت، وهو مـؤرخ بميول مسيحيـة واضحة، أنه (مهمـا كان التناقض بين روح المسيـح والقـوة المسلّحة، ومهمـا كان الاعتراف بالحقيقة مؤلمًـا، فإن التاريخ يقول لنا، ببسـاطـة إن القوة المسلحة كثيرًا ما كانت العامل الذي نشر روح المسيح ومحاها)[1].

كان السيـف الدنيوي هو المسـؤول عن جعل المسيحية دينًا عالميًّـا. تمشى التبشير والغـزو يدًا بيدًا، و كثـيرًا ما استخدم التبشير مبررًا للغزو. وفي الحـالات التي فشلت فيها المسيحية

(1) Kenneth Scott Latourette, The Unquench Able light, (New York: Harper & Brothers, 1941), p. 33.

في الحصول على دعم دولة ما، أو الاحتفاظ بهذا الدعم، فإنها لم تستطـع تحقيق وجود واسع أو دائـم. (واجهت المسيحية في فارس ديانة وطنية تدعمها قوة التاج، ولهذا بقيت محصورة في أقلية صغيرة)[1] وفي الفتوح الإسلامية الأسطورية كان الفتح، نفســه، هو العامـل الأساسي، أمـا الحصول علـى أتباع جدد للديـن، فقد جاء في المرتبة الثانيــة: (إن أكثر عصور الإسلام ازدهــارًا كانت أيام قوته السياسيــة، وفي هذه الأوقات استقبل الإســلام الكثير من المعتنقـين الجدد من خــارج دائرته)[2]. لم تستطـع حركـة الإصــلاح البروتستانتي تحقيــق أيّ تقدم، إلا عندمــا حظيــت بدعــم أمير حاكــم أو سلطــة محلية. قال ميلانشتــون، أكثر مساعدي لوثر حكمــة: (دون تدخل السلطة السياسيــة ماذا كان سيحــدث لمبادئنا؟ كانــت ستبقى مجرد مبادئ على الــورق)[3] وعندما اصطدمت هــذه الحركة بقوة الــدول، كمــا حدث في فرنسا، غرقت في بحــر من الدماء، ولم تنهض ثانية. وفي حالة الثورة الفرنسية كانت جيوش الثورة، لا

(1) Kenneth Scott Latourette, A History of the Expansion of Christianity (New York: Harper & Brothers 1937) vol 1, p. 164.

(2) Charles Reginald Haines, Islam, As A Missionary Religion (London: Society For Promoting Christian Knowledge, 1889), p. 206.

(3) Quoted by Frantz Funck. Brentano, op, cit. p. 260.

أفكارها، هي التي تغلغلت في أوروبا بأكملها[1]. لم تكن المسألة مسألة عدوى فكرية.، قال ديموريز عن الفرنسيين (كانوا يعلنون مبدأ الحرية المقدّس، كما لو كان القرآن، وهم يشهرون السيوف.[2] وخطر الشيوعية، في الوقت الحاضر، لا ينبع من قوة أفكارها، ولكن من كونها مدعومة بجيش من أقوى جيوش العالم.

يبدو أنه كلما كان أمام الحركة الجماهيرية خيار الإقناع والقمع، فإنها تنزع إلى اختيار القمع. إن الإقناع عملية صعبة ذات نتائج غير مضمونة. قال القديس الأسباني دومينيك[3] لجماعة متهمة بالهرطقة: (عبر سنين طويلة رجوتكم بلا جدوى، وكنت أعظكم برفق، وأنصحكم بالصلاة والبكاء). إلا أن المثل الأسباني يقول: «عندما لا تنفع الدعوة الرقيقة، فإن الضربات قد تنفع. سوف أثير عليكم الأمراء والحكام... وستنفع الضربات، حيث فشلت الدعوة الرقيقة»[4].

(1) Gugilelmo Ferrero, The Gamble, (Toronto: Oxford University Press, 1939), p. 297.

(2) Crane Brinton, A Decade of Revolution (New York: Harper and Brothers, 1934), p. 168.

(3) عاش القديس دومينيك بين سنتي (1170 - 1221م) وإليه ينسب المذهب الكاثوليكي المُسمى باسمه والذي يركز على أهمية التبشير والتعليم. (المترجم).

(4) «Dominic» Encyclopaedia Brittannica.

# 87

إن المقولة التي تذهب إلى أنه لا يمكن إيقاف حركة جماهيرية بالقوة لا تصحّ على علاّتها. تستطيع القوة أن توقف أشد الحركات حيوية وتسحقها إلا أنها لكي تتمكن من فعل ذلك، فلا بدّ من وجود العقيدة عاملًا لا يمكن الاستغناء عنه. إن استخدام القوة استخدامًا عنيفًا مطردًا لا يمكن أن ينبع إلا من عقيدة متطرفة. (كل عنف لا ينبع من قاعدة روحية صلبة سيتصف بالتردد وفقدان الهدف. إنه يفتقر إلى الثبات الذي لا يمكن أن يستند إلا على مبدأ متطرف[1]. ولا يمكن للإرهاب النابع من قسوة فردية أن يذهب إلى المدى المطلوب أو يبقى المدة المطلوبة. مثل هذا العنف الفردي متقلب يتحكم فيه المزاج ويعتريه التردد. (بمجرّد أن تتردد القوة أو تقترن بفترات من التسامح، فإن المبدأ المطلوب طمسه سوف يعود المرة بعد المرة، بل إنه سيستمد المزيد من القوة نتيجة ما عاناه من اضطهاد)[2]. الرعب المقدّس لا يعرف الحدود، ولا يعرف التردد.

وهكذا يبدو أنه لا بدّ لنا من إيمان متحمس، لا لكي نستطيع مقاومة القمع فحسب، بل لكي نستطيع ممارسته بفاعلية.

(1) Adolph Hitler, op. cit, p. 171.
(2)Ibid p. 171.

## من أين تأتي الرغبة في التبشير؟

## 88

إن قوة العقيدة ليست العامل الرئيس الذي يدفع حركة جماهيرية إلى نشر عقيدتها في جهات الأرض الأربع: (إن الأديان التي يؤمن بها أتباعها بحماسة كثيرًا ما تكتفي بازدراء العقائد الأخرى واحتقار أتباعها)[1] كما أن التبشير ليس تعبيرًا عن قوة هائلة لا بدّ، كما قال بيكون (أن تفيض وتغمر كل شيء، مثل طوفان عظيم)[2].

يبدو أن الرغبة في التبشير تجيء من شك عميق، من شعور بعدم الثقة في صميم الحركة. ويمكن النظر إلى التبشير بوصفه محاولة عاطفية للبحث عن شيء لم نجده نحن بعد قبل أن يكون محاولة لإعطاء العالم شيئًا نملكه بالفعل: إنه بحث عن إثبات نهائي قاطع أن الحقيقة المطلقة التي نؤمن بها هي، بالفعل، الحقيقة المطلقة الوحيدة. والتبشيري المتطرّف يغذي إيمانه هو عن طريق إقناع الآخرين باعتناق عقيدته. والمذهب الذي تسهل مهاجمة شرعيته سوف يكون أكثر المذاهب حرصًا

(1) Jacob Burckhardt, Force and Freedom, (New York: Pantheon Books, 1943), p. 129.

(2) Francis Bacon, «of Vicissitude of thing, Bacons' Essays, Everyman's Library Edition (New York: E. p. Dutton & Company, 1932), p. 171.

على التبشير. من المشكوك فيه أن حركة لا توجد في عقيدتها أشياء خيالية وغير عقلانية يمكن أن يتملكها ذلك الشعور الطاغي بأنه (لا بد من أن نضم إلينا العالم، أو ندمر العالم). كما أنه يمكن القول: إن تلك الحركات التي تعاني بشدّة من الهوة بين العقيدة والممارسة، وبعبارة أخرى، الحركات التي يتفشى فيها الشعور بالذنب ستكون الأكثر حماسة لفرض عقيدتها على الآخرين. كلما ظهر عجز الشيوعية عن تحقيق منجزات في روسيا، وكلّما اضطر قادتها إلى تغيير مبادئها الأصلية وتعديلها، كلما زاد هجوم هؤلاء القادة على العالم غير الشيوعي حدة ووقاحة. أصبح مالكو الرقيق في جنوب الولايات المتحدة أكثر إصرارًا على نشر أسلوب حياتهم عندما أصبح من الواضح أن هذا الأسلوب لم يعد مقبولاً في الحياة العصرية. وعمدا يفرط الاقتصاد الحر في التبشير بقضيته المقدّسة فإن هذا دليل على أن مزاياه وفاعليته لم تعد ظاهرة لا تحتاج إلى بيان[1].

يمكن النظر إلى النزعة المتحرّقة إلى التبشير والنزعة المتحرّقة إلى السيطرة على العالم بوصفهما أعراضًا لمشكلة خطيرة في صميم الحركة. ولعلّه من الصحيح أن المبشرين، والغزاة باسم الدين، شأنهم شأن اللاجئين، يذهبون إلى

(1) لعل هذا بدأ يحدث مؤخرًا في العالم الرأسمالي (المترجم).

الشطآن البعيدة؛ هربًا من واقع لا يمكن تحمله في الوطن. والفئات الثلاث، في حقيقة الأمر، كثيرًا ما تتلاقى، وتختلط، وتتبادل الأدوار فيما بينها.

## القيادة

## 89

برغم الأهمية البالغة التي نعلّقها على دور القيادة في صعود الحركة الجماهيرية، فإنّه من المؤكد أن القائد لا يستطيع خلق الظروف التي تجعل صعود حركة جماهيرية أمرًا ممكنًا، أي لا يستطيع صنع الحركة من فراغ، لا بد أن يكون هناك توقٌ إلى الانقياد والطاعة وشعور عميق بعدم الرضا عن الأوضاع الراهنة قبل أن تظهر الحركة وتظهر قيادتها. وفي غياب الظروف المواتية فإن القائد، مهما كان موهوبًا ومهما كانت قضيته المقدّسة جذابة، فسيبقى بلا أتباع. كانت الحرب العالمية الأولى، وما تلاها، المسؤولة عن تهيئة التربة التي سمحت بظهور الحركات البلشفية والفاشية والنازية. لو أن تلك الحرب لم تقم، أو لو تأخرت عقدًا أو عقدين، لكان مصير لينين وموسوليني وهتلر لا يختلف عن مصير الكثير من المتآمرين في القرن التاسع عشر، وهم الذين فشلوا في تحويل الاضطرابات والأزمات التي واجهوها إلى حركات جماهيرية شاملة. كان هناك شيء غائب عن الصورة: لم تكن الجماهير

الأوروبية، حتى أحداث الحرب العالمية الأولى المفصلية، قد فقدت الثقة تمامًا في الحاضر، ولم تكن مستعدة للتضحية به في سبيل حياة جديدة وعالم جديد. حتى القادة الوطنيون الذين عملوا بفاعلية تفوق فاعلية الثوار لم يتمكنوا من جعل القومية قضية مقدّسة، كما حدث فيما بعد. ظهرت القومية المتطرفة والثورية المتطرفة في الوقت نفسه.

وفي بريطانيا، بدورها، كان على القائد أن ينتظر حتى تنضج الظروف المواتية؛ لكي يستطيع القيام بدوره. خلال الثلاثينيات كان القائد المحتمل، تشرشل، معروفًا ومشهورًا يصل صوته إلى الناس، يومًا بعد يوم. إلا أن الرغبة في اتباع القائد لم تكن موجودة. كان لا بد من الانتظار إلى أن جاءت الأزمة وهزت البلاد بعنف وأقنعت الناس بضرورة اتباع القائد.

هناك مدة من الانتظار، والانتظار الطويل أحيانًا، في الكواليس قبل ظهور القادة الكبار على المسرح في لحظة تبدو لنا اللحظة المفصلية في تاريخ الحركة. إن الأحداث والمصادفات وسلوك الآخرين هي العوامل التي تهيئ المسرح قبل أن يظهر القادة ويمارسوا أدوارهم. (إن البطل الرئيس في نهاية يوم حافل يبدو كما لو كان المصادفة الأخيرة في يوم مليء بالمصادفات)[1].

(1) John Morley, Notes on Politics and History (New York: Macmillan Company, 1914),pp. 69- 70.

## 90

عندما يصبح المسرح جاهزًا فإن ظهور القائد الموهوب يصبح أمرًا محتومًا. من دون هذا القائد لا يمكن أن تولد الحركة الجماهيرية. إن أكثر الظروف نضجًا لا تنتج، بالضرورة، حركة جماهيرية، كما أن الانتخابات والتشريعات والمكاتب الإدارية لا تستطيع أن تفرّخ الحركة. كان لينين المسؤول عن تحويل مجرى الأحداث إلى قناة الثورة البلشفية. لو أنه مات في سويسرا، حيث كان يعيش، أو في طريقه إلى روسيا سنة 1917م، لكان في حكم المؤكّد أن ينضم قادة البلاشفة إلى حكومة ائتلافية، ولكانت النتيجة جمهورية ليبرالية تتحكم فيها الطبقة البورجوازية. وفي حالة هتلر وموسوليني، تشير الحقائق، على نحو قاطع، أنه من دونهما لم يكن من الممكن قيام النازية والفاشية.

وتثبت التطورات في بريطانيا في الوقت الحاضر (1951م) ضرورة وجود قائد موهوب لبلورة حركة جماهيرية. كان بوسع قائد كهذا، تشرشل بنزعات اشتراكية، على رأس حكومة العمال أن ينفذ برامج التأميم الجذرية في جو حركة جماهيرية مندفعة، بدلًا من تنفيذها على نحو مملّ بعيد عن الإثارة. كان بوسعه تصوير العامل البريطاني في دور المنتج البطولي الرائد في عملية التصنيع، وكان بوسعه أن يشرح للبريطانيين أن

دورهـم الرئيس هو أن يظهروا للعالم كلّـه، ولا أمريكا وروسيا بالـذات، مـا يمكن لأمـة متحضـرة أن تحققه عندمـا تتحررّ مما يواكـب الرأسمالية من ارتباك وهـدر وجشع، وما يواكب الشيوعيـة من بيروقراطية وجهـل وتخلّف. كان بوسعه أن يبث في دمـاء الشعب البريطاني الاعتـداد والأمل اللذين كانا عونه الأكبر في أحلك ساعات الحرب العالمية الثانية.

يتطلـب الأمـر إرادة حديديـة ورؤية لـدى قائـد استثنائي يمكـن تحويـل الآراء والاتجاهـات السائدة إلى مجـرى الحركة الجماهيريـة. يجسّـد هـذا القائد صـدق المبدأ وتحـدّي القوة وعظمتهـا. ويعبر عن النقمة المخزونة في صدور المحبطين ويجد لها التبريرات. ويشعل رؤى غد مشرق رائع؛ ليبرّر التضحيات في الحاضـر العابر. ويبني مسارح الخيال التـي لا بُدّ منها لضمان التضحية بالذات والعمل الجماعي. ويبني صورة جذابة للمجموع تساعد المحبطين على الانفلات من وجود فردي تافه بلا معنى.

مـا هي المواهـب اللازمـة للقيام بهـذا الـدور القيادي؟ إن الـذكاء الخـارق ونبـل الشخصيـة والابتكار لا تبـدو أمورًا ضرورية، بل قد لا تكون أمورًا مرغوبًا فيها. الصفات التي تبدو ضرورية هي الشجاعة والاستمتاع بالتحدّي؛ الإرادة الحديدية؛ الإيمان الذي لا يقبل نقاشًـا أنه وحده يمتلك الحقيقة المطلقة الإيمان بمصيره وسعد طالعـه؛ القدرة على الكراهية المتّقدة؛

احتقار الحاضر، القدرة على تحليل الطبيعة البشرية؛ الولع بالرموز (المشاهد الرائعة المثيرة)؛ الثقة المطلقة التي تصل حد الاستخفاف بالعدالة والمنطق؛ معرفة شوق الجموع إلى الالتحام بكيان جماعي والذوبان فيه؛ القدرة على كسب ولاء مجموعة من المساعدين الأكفاء والاحتفاظ به - وهذه الخصلة الأخيرة واحدة من أهم الصفات وأندرها. إن قوة القائد الأسطورية لا تتجلّى في تحكمه في الجماهير الغفيرة بقدر ما تظهر في قدرته على السيطرة التامة على مجموعة صغيرة من الرجال الأكفاء. يجب أن يكون هؤلاء الرجال شجعانًا، معتدين بأنفسهم، أذكياء قادرين على تحقيق منجزات كبرى، ومع ذلك كله يجب أن يخضعوا كليّة لإرادة القائد، وأن يستمدوا الإلهام منه وحده، وأن يعدّوا هذا الخضوع غاية المجد.

وباستعراض الصفات السابقة نجد أنها ليست على مستوى واحد من الأهمّية. أهم الصفات المطلوبة في قائد الحركة الجماهيرية الشجاعة والإيمان المطلق بقضيته المقدّسة، وإدراكه أهمية قيام كيان جماعي متلاحم، وأهم من ذلك القدرة على خلق ولاء أعمى عند مجموعة من المساعدين الفاعلين. لقد فشل تروتسكي[1] نتيجة عجزه عن إيجاد

(1) كان تروتسكي (1879 - 1940م) من أبرز قادة الثورة البلشفية وكان رفيقًا قريبًا من لينين وقد نفاه ستالين، ثم قام باغتياله في المكسيك (المترجم).

مساعديـن أكفاء يدينون له بالـولاء المطلق. لم يكن قادرًا على اجتـذاب الحـب ولا قادرًا علـى الاحتفاظ به[1]. كمـا أنه كان يعـاني من مشكلة أخـرى هي احترامه الكامـل للفرد، والفرد المبـدع بالذات. لم يكن يرى أن الوجـود الفردي المستقل يرقى إلى الخطيئة، ولم يكن يعي أهمية التحام الفرد بالمجموع لنجاح الحركـة الجماهيرية. وفي الصين تمكن سن يات سن [٢] (من أن يجـذب عددًا من الأعوان القادرين، مستثيرًا خيالهم برؤاه عـن الصين الجديـدة وموجدًا لديهـم روح الـولاء والتضحية بالـذات)[3]. أمّـا تشانج كي شيـك فيبدو، بخلافـه، مفتقرًا إلى كافـة الصفـات الضرورية في قائـد الحركة الجماهيرية. مـن الناحية الأخرى، يبدو ديجـول[٤] قائدًا يتوقع منه الكثير. أمـا قادة الأحـزاب الشيوعية خارج روسيـا فهم عاجزون، مع

(1) Angelica Balabanoff, My Life As Rebel,(New York: Harber, Brothers, 1988), p. 152.

(2) يعـدّ سـن يات سـن (1866–1925) مؤسس الصين الحديثـة، وقد أنشأ الحزب الوطني، وقضى على النظام الأمبراطوري، وأسس جمهورية سنة 1911م، وظل حتى وفاته الحاكم الفعلي للصين (المترجم).

(3) Frank wilson Price «Sun Yat- Sen» Encyclopaedia of Social Sciences.

(4) قاد الجنرال شارل ديجول (1890–1970م) حركة فرنسا الحرة على إثر استسـلام فرنسا في الحـرب العالمية الثانية وترأس الحكومة الفرنسية المؤقتـة (1944 – 1964م) وأسس الجمهورية الخامسة سنة 1959م وتولى رئاستها حتى استقال سنة 1969 (المترجم).

خضوعهــم المطلق لستالين والمكتب السياسي، من الوصول إلى مستــوى القادة، ويقتصــر دورهم على كونهم مــن المساعدين الأكفــاء. ولكي تنجح الشيوعية حاليًا في أي دولة غربية فلا بدّ من ظهور أحد نقيضين: إمّا أن تبرز شخصية ستالين وتتجسّد علــى نحــو يبلور الحركــة، وإمــا أن يقطــع الحــزب الشيوعي المحلّي صلاته بروسيا، كما فعــل تيتو[1]، ويتحدّى الرأسمالية والشيوعيــة معًا. لو كان لينين رئيس حزب شيوعي يعيش بعيدًا عــن روسيا لكان مــن المشكوك فيه أن يمارســ تأثيره الحاسم على التطورات في روسيا.

## 91

إن الآراء الفجّــة التي يصبر عنها عدد من قادة الحركات الجماهيريــة والعصرية قد تدفع المــرء إلى الاعتقاد بأن قدرًا من السذاجة ينفع القائد، إلا أن هذه الملاحظة غير صحيحة. لم تكن سذاجة هتلــر أو آمي ميكفرسون [2] هي التي مكنتهما

(1) قــاد المارشال جــوزف بروزتيتو (1892– 1980م) حركــة المقاومة اليوغسلافية ضد الاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية وأسس الحزب الشيوعي وقاده، ثم نأى بنفسه عن موسكو واختط سياسة حيادية بين المعسكرين (المترجم).

(2) كانت آمي ميكفرســون (1890– 1944م) مبشرة أمريكية مثيرة للجدل، تمكنت مــن تحقيــق ثــروة طائلة وصيــت ذائــع واجتذبت جموعًــا غفيرة مــن الأتباع المخلصين (المترجم).

مـن اجتذاب الأتباع؛ كان السبب الثقة المطلقة في النفس، هذه الثقة التي تمكن القائد من عرض أفكاره، مهما كانت مشوشة وسطحية، بكل جرأة واعتداد، ويمكن للقائد الحكيم الذي يتبع مسـار حكمته إلى النهاية أن يحقق قـدرًا مماثلًا من النجاح، ومـن الأفكار، في حد ذاتهـا، لا تتعب سوى دور صغير في قيادة الحركـة الجماهيرية، ما يهم هو المبـادرات الجريئة والقدرة على تجاهل آراء الآخرين وعلى تحدّي العالم بأسره.

إن شيئًا من الخداع أمر ضروري في تكوين القيادة الجماهيرية الفاعلة. لا يمكن أن تقوم حركة جماهيرية من غير تشويه متعمد، يغـير الحقائـق ويجعلهـا تجتـذب الأتبـاع وتجعلهـم متحمسـين ومخلصين حتّى الموت. يجـب أن يكون القائد واقعيًّا وعمليًّا، ولكن يجب أن يتحدث بلغة المثالي صاحب الرؤية المثالية.

إن الابتـكار ليس شرطًـا ضروريًا لنجاح القائـد. بل إننا نجـد أن من الصفـات القيادية القدرة على تقليـد الأصدقاء والأعداء، على حد سواء، في الحاضر أو الماضي.

إن الجـرأة المطلوبة للقيادة تتضح في الجرأة على التقليد بقـدر مـا تتضح في الجرأة علـى تحدّي العـالم. إننا نلحظ في شخصية البطل قدرة غير محدودة على التقليد، وإصرارًا على اتبـاع نمـوذج سابق. وهـذا يدفعنا إلى أن نلاحـظ أن الرغبة المفرطـة في التقليد تدلّ على أن البطل لم يستطع تحقيق ذاته،

وأن في شخصيته الكثير من الجوانب السطحية المكبوتة. وعلى ذلك، فهو قادر على تحقيق ما يحققه بطمس نقاط الضعف كلها والتركيز على نقاط القوَّة.

## 92

إن التخلي التام عن الذات المستقلة شرط أساسي لتحقيق الوحدة والتضحية بالنفس، ولعله لا توجد طريقة تسهّل هذا التخلي مثل غرس الطاعة العمياء في نفوس الأتباع. عندما يجبر ستالين العلماء والكتاب والفنانين على الزحف على بطونهم والتنكر لذكائهم وإبداعهم وحسّهم الأخلاقي، فإنه لا يفعل ذلك إرضاءً لنزعة سادية، بل ليبرز الأهمية القصوى للطاعة العمياء ويكرّسها. والحركات الجماهيرية كلها تعدّ الطاعة أهم السمات وتجعلها معادلة للإيمان: (إن اتحاد العقول لا يمكن أن يتحقق بمجرد الإيمان بعقيدة واحدة، بل لا بد من أن يكون الاستسلام للكنيسة والبابا في روما مساوِمًا للاستسلام لله)[1] ليست الأديان وحدها هي التي تتطلب الطاعة، بل إن الطاعة هي المبدأ الأول في كل حزب ثوري، وكل

(1) Leo X 111 , Sapientiae christtianae.

ويرى لوثر في عدم الطاعة «خطيئة أكبر من القتل، والتهتك، والسرقة، والخيانة».

Quoted by Jerome Frank, Fate and Freedom (New York: Simon and Sch 4 Ster, Inc, 1945, p. 281.

قوميـة متحمسة. (أطـع - ولا تسأل عن السبـب) - هو المبدأ الذي تعدّه الحركات الجماهيرية المثل الأعلى للسلوك.

إنّ مـا يواكب الحـركات الجماهيرية مـن فوضى وسفك دماء ودمار قد يدفع المرء إلى الاعتقاد أن جميع أتباع الحركة، بطبيعتهم، مـن الأشرار المجرمين. غير أن القسوة الجماعية، في حقيقـة الأمر، ليست بالضرورة دليلًا على قسوة فردية. إن الغضب الفردي يحول بين صاحبه وبين العمل الجماعي ويدفعه إلى تصـرف فردي. مثل هذا الغضب ينتـج المكتشف والمغامر ورجـل العصابة، أما عضو الجماعة الجماهيرية فهو، أساسًا، فرد مطيع خانـع، حتى عندما تكون أفعاله عنيفة فوضوية. إن المتظاهـر الشيوعـي العنيف هـو عضو مطيـع مستسلم لإرادة الحزب. والعنـف الياباني والنازي تم على يد أفراد ربّما كانوا الأكـثر انضباطًا في تاريـخ العالم. وفي الولايـات المتحدة يجد ربّ العمل أن الرجـل الجنوبي المتطرّف الذي ينزع إلى العنف يصبـح في المصنع عامـلًا مطيعًا وديعًا. وهـذا الجنوبي نفسه عندما ينضم إلى الجيش يكون مستعدًا تمامًا للانضباط.

## 93

يبـدو أن الأشخاص الذين يعيشون حياة فارغة تفتقر إلى الثقة بالنفس يبدون استعدادًا للطاعة يفوق استعداد الأشخاص الذين يمتلكون الثقة بالنفس. إن التحرّر من المسؤولية، في نظر

المحبطين، أكثر جاذبية من التحرّر من القيود. والمحبطون على استعداد للتخلّي عن استقلالهم مقابل التخلص من أعباء الاختيار والقرار وتحمل نتائج الفشل المحتوم. يُسلم المحبطون بكل سهولة زمام حياتهم لرؤساء يقومون نيابة عنهم بالتخطيط وإصدار الأوامر وتحمل المسؤولية كاملة. وفوق ذلك، يبدو الخضوع التام لإرادة القائد الأعلى وسيلة لتحقيق المساواة التامة.

في الأزمات، خلال الفيضانات والزلازل والأوبئة والمجاعات والحروب، تنعدم جدوى الجهود الفردية ويصبح الناس، بجميع مستوياتهم، مستعدين لإطاعة القائد والسير خلفه، في هذه الظروف تصبح الطاعة القاعدة الصلبة الوحيدة في وجود من الفوضى.

## 94

إن المحبطين أكثر الناس قدرة مع أن يكونوا أتباعًا مخلصين. والملحوظ في الجهود الجماعية أن أقل الناس استقلالاً هو آخر من يزعجه احتمال الفشل. وسبب ذلك أن المحبطين يشاركون في عمل جماعي، لا ليضمنوا نجاح مشروع يهمهم، بل ليتجنبوا التعرض للوم إذا فشل المشروع. عندما يفشل مشروع جماعي يتفادى المحبطون الشيء الذي يخافونه أكثر من أيّ شيء آخر، وهو ما يكشف عيوبهم الفردية. يبقى

إيمانهم بعد الفشل كما كان قبله، وتبقى لديهم الرغبة في المحاولة من جديد.

يتبع المحبطون القائد، لا لأنه سيقودهم إلى الأرض الموعودة، بل لأنه يقودهم بعيدًا عن أنفسهم التي يكرهونها. الاستسلام للقائد ليس وسيلة، ولكنه غاية في حد ذاته، أمّا الاتجاه الذي يسير فيه القائد فأمرٌ لا يهم كثيرًا.

## 95

هناك، على ما يبدو، فارق أساسي بين قائد حركة جماهيرية وبين القائد في مجتمع حرّ. في المجتمعات التي تتمتع، على نحو أو آخر، بالحرية، لا يحتفظ القائد بولاء الناس، إلا عندما يكون لديه إيمان مطلق بحكمتهم وطيبتهم.

إن قائدًا من الدرجة الثانية يملك هذا الإيمان سوف يكون أنجح من قائد من الدرجة الأولى يفتقر إليه. وما يعنيه هذا هو أن القائد في المجتمع الحرّ يتبع الناس، حتى وهو يقودهم. عليه كما قال البعض، أن يعرف اتجاه الناس؛ لكي يستطيع أن يقودهم في هذا الاتجاه. أما عندما يحتقر القائد في المجتمع الحرّ الناس، فإنه يبدأ التصرف كما لو كان كل الناس حمقى، وسرعان ما ينتهي بالهزيمة. إلا أن الأمور تختلف عندما يكون بوسع القائد استخدام القمع العنيف: يستطيع قائد الحركة

الجماهيرية فرض الطاعة العمياء فرضًا، والتصرف على أساس أن كل الناس جبناء، وهذا افتراض صحيح في هذه الحالة.

من أسباب فشل القادة الشيوعيين في التنظيمات النقابية الغربية أنهم يتبعون تعليمات الحزب الشيوعي حرفيًا، ويتصرفون وكأنهم قادة حركة جماهيرية، بينما هم في الواقع، أعضاء في منظمات تضمّ رجالًا أحرارًا.

## العمل

## 96

إن الانغماس في العمل عامل توحيد. والتميز الفردي الذي يوجد بين ممارسي العمل الفعلي، عامل البناء، والجندي، والرياضي، وحتى العَالم، أقل بكثير من التميز الموجود لدى الأشخاص الذين ينبع إبداعهم من تواصلهم مع أنفسهم. لا يصبح المرء جاهزًا للعمل إلا عندما يتخلص من فرديته وتميّزه الذاتي. وهكذا نرى أن النشطين المنهمكين في العمل ينزعون إلى اتباع أنماط موحّدة من السلوك. من المشكوك فيه، لولا الجهود الخارقة التى يتطلبها غزو قارة بأكملها، أن يتمكن الأمريكيون، وهم أمة من المهاجرين، من تحقيق التجانس الاستثنائي الذي حقّقوه في مدة زمنية قصيرة. كل الذين قدموا إلى أمريكا ليعملوا، أي لجينوا أرباحًا مادية، تأقلموا

مـع الوطن الجديد بسهولة لم تكن متاحة لأولئك الذين قدموا لتحقيق أهداف مثالية سامية. شعر أفراد الفئة الأولى بتعاطف فوري مـع الملايين الراكضين وراء الهدف نفسه، وأحسّوا أنهم أعضـاء في أسرة واحـدة. أدرك هؤلاء في وقـت مبكر أنه لكي ينجحوا، فـلا بدّ لهم من أن ينسجموا مع محيطهم، أن يفعلوا ما يفعله الآخرون، أن يتعلموا اللغة ويعرفوا قواعد اللعبة. وفوق هذا، فإن الاندفاع الجنوني الذي وجدوا أنفسهم في غماره حال بينهـم وبين إظهار شخصياتهم الفردية المتميزة، حتى عندما كانـوا راغبين في إظهارها، ولم يدع لديهم القدرة على مقاومة المحيط الجديد. ومن الناحية الأخرى، فإن أولئك الذين قدموا لتحقيق مثل عليا، تتعلق بالحرية أو العدالة أو المساواة، وجدوا البلاد بعيدة عن ممارسة القيم التي يؤمنون بها، وقادهم هذا إلى شعور بالتفوّق أبقاهم في معزل عن بيئتهم الجديدة.

## 97

يصعب أن يعمل رجال الفكر يدًا بيد، أما رجال العمل فتوجد بينهـم رفقـة كرفقة السـلاح. إن العمـل فريقًا واحـدًا نادر بين المفكريـن، بينما هو أمر ضروري عنـد رجال العمل. إن الصيحة لنذهب لنبن مدينة أو برجًا[1] هي، دومًا، نداء للعمل الجماعي.

(1) Genesis, 11. 4.

قد يكون قوميسار الصناعة الشيوعي أقرب إلى الصناعي الرأسمالي منه إلى المنظر الشيوعي. والرابطة الشيوعية الدولية الحقيقية هي رابطة بين عمال، لا بين منظرين.

## 98

كل الحركات الجماهيرية تعد العمل وسيلة للتوحيد. إن المعارك التي تثيرها الحركة الجماهيرية وتبحث عنها لا تقضي على أعداء الحركة فحسب، بل تعمل على تجريد أتباعها من تميزهم الذاتي، وتجعلهم أكثر قابلية للذوبان في المجموع. والمشاريع الكبرى، مثل تسوية الأراضي، وبناء المدن، والاكتشافات الجغرافية والصناعات الضخمة تقوم، إلى حدّ ما ، بتحقيق هدف مماثل. حتى المشية العسكرية، فإمكانها أن تكون عنصر توحيد، وقد استغلت النازية إلى أبعد حد هذه الجزئية. في البداية كان روشننج يرى أن هذه الطوابير العسكرية التي لا نهاية لها مضيعة للوقت والجهد إلا أنه أدرك، فيما بعد، تأثيرها الخفيّ: (المشي في الطابور العسكري يتطلب التركيز التام، ويقتل التفكير، ويقضي على الفردية)[1].

إن دعوة الحركة الجماهيرية إلى العمل تلقى استجابة متحمسة من المحبطين الذين يرون في العمل شفاءً لجميع

(1) Hermann Rauschning, The Revolution of Nihilism (Chicago: Alliance Book Corporation, 1939), p. 48.

أمراضهم. ينسيهم العمل أنفسهم ويمنحهم شعورًا بالأهمية. إن الإحباط ينبع أساسًا من العجز عن العمل، وأشدّ المحبطين توترًا هم أولئك الذين تؤهلهم مواهبهم وأمزجتهم لحياة من العمل بينما تجبرهم ظروفهم على الفراغ والصدأ. هذا وحده ما يفسّر لنا كيف أن أشخاصًا مثل لينين وتروتسكي وموسوليني وهتلر قضوا معظم سنواتهم يثرثرون في المقاهي والاجتماعات، ثم برزوا، بغتة، كأكفأ قادة جيلهم وأشجعهم.

## 99

ينظم الإيمان نفسية الفرد ويعدها للعمل. أن يشعر المرء أنه يمتلك الحقيقة الوحيدة المطلقة ولا يشك، قطّ، في صحتها؛ أن يشعر أنه محميٌّ بقوة يمكن أن تكون الله، أو القدر، أو حتمية التاريخ؛ إنه يعتقد أن أعداءه تجسيد للشر ويجب سحقهم؛ أن يبتهج بإنكار الذات والانقطاع للواجب، هذه مؤهلات رائعة تحفّز على العمل القاسي الجاد في أي ميدان، لقد ثبت أن الذين يرددون المقطوعات الدينية، خلال عملهم، سواء كانوا جنودًا أو مكتشفين أو رجال أعمال، أو حتى رياضيين، رجال صعبون شديدو المراس. ويمكن للحماسة القومية أو الثورية أن تحقق الهدف نفسه: أن تحوّل الرجال الكسالي التافهين إلى مقاتلين وعاملين نشطين. من هنا يمكن القول: إنه لا بد من ظهور حركة جماهيرية، من نوع ما؛ ليمكن تطوير المجتمعات الجامدة المتخلفة.

إلا أن استعـداد المؤمـن الصـادق لانتهاج حيـاة من العمل يمكـن أن يفيد الحركة الجماهيريـة، كما يمكن أن يكون خطرًا عليهـا. قد تعجل الحركـة بنهايتها عندما تفتـح ميادين واسعة للعمـل المحمـوم. قد يصبـح العمـل الناجح هدفًـا في حد ذاته ويحـوّل كل طاقـات الفـرد؛ لتصـبّ في مجراه. عندهـا يتحوّل الإيمان والقضية المقدّسة من كونهما الهدف الأسمى إلى مجرد وقـود للعمل. والمؤمن الصادق الذي ينجح في كل مساعيه ينجح في استعادة الثقة، ويستطيع أن يتعايش مع نفسه ومع الحاضر.

وعندمـا يصل الفرد إلى هذه المرحلـة، ويكف عن اعتبار نسيـان النفسـ وذوبانهـا في المجمـوع وتحريرها مـن الإرادة والاختيـار والمسؤولية السبيل الوحيـد للخلاص يصبح معتقدًا أن خلاصـه في العمـل، وفي إثبـات قيمتـه، وفي تأكيـد هويتـه الفردية. حتى عندما يفشل العمل في تحقيق ذات المحبط، فإنه ينجـح في تبرير وجودها. وعندما يبقـى المحبط، على عقيدته فإنـه يفعل ذلك لتغذيـة ثقته ومنح نجاحـه الشرعية. وهكذا نـرى أن طعم النجاح الفردي المستمر في العمل يؤثر سلبًا على روح المجموع. والشعب الذي دأب على الانهماك في العمل سوف يكون، على الأرجح، أقل تطرفًا وأقلّ ثورية من غيره. إن ما نراه مـن ترابط اجتماعي ومن تسامح سياسي وديني لدى الشعوب الأنجلوسكسونية هو -إلى حدّ ما- نتيجة توفر الرغبة والمهارة

لدى أفراد الشعب، بالإضافة إلى وجود فرص عمل وفيرة. كان العمل هو البديل عن الحركات الجماهيرية.

وفي المقابل، فإن اختفاء فرص العمل نهائيًا، سواء بسبب ركود حاد أو هزيمة عسكرية، سينتج إحباطًا عنيفًا تكون نتيجته تهيئة الأرض، بحيث تجد الحركة الجماهيرية المناخ الملائم لرعايتها. كان الوضع المتفجر في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة الجمود الذي فرض قسرًا على شعب، يعرف أنه مهيًّأ تمامًا للعمل. ثم جاء هتلر ومنح الألمان فرصًا للعمل الدائب المثير، ومنحهم حركة جماهيرية. لا غرو، بعد ذلك، أن اعتبروه المنقذ.

## الشّك

## 100

رأينا، فيما سبق، كيف تتحوّل إفرازات العقل المحبط، المكوّنة أساسًا من الخوف وسوء النية، إلى حافز يجعل من المحبطين مجموعًا واحدًا متماسكًا. إن الشّك واحد من هذه الإفرازات، ويمكن له، بدوره، أن يكون عامل توحيد.

إن إحساس المحبط بعيوبه ونواقصه يجعله يرى سوء النية واللؤم عند جميع البشر. واحتقار النفس، حتى عندما يكون خفيًّا، يجعلنا أكثر قدرة على اكتشاف عيوب الآخرين:

نحـاول جهدنـا أن نكتشف لـدى الآخرين العيـوب التي نعاني منهـا. وهكـذا يصبح الجوّ عندما يجتمـع المحبطون في حركة جماهيريـة مليئًـا بالشك: هنـاك تلصّصٌ وتجسـس ومراقبة دائمـة وشعور حاد أن المرء تحت المراقبـة. والمدهش، هنا، هو أن هذا الشك المَرَضي بين أفراد الجماعة لا يقود إلى الخلاف، بـل إلى العمـل الجماعي المنضبط. ينزع أتبـاع الحركة الذين يشعـرون أنهم تحت مراقبـة دائمة إلى إزالـة الشكوك عنهم بالالتـزام الكامل بتوجيهات الحركة والمسلك الذي تتطلّبه. إن الانضباط المفرط قد يكون نتيجة الشكوك المتبادلة، وقد يكون نتيجة الإيمان المتحمّس.

تعتمد الحـركات الجماهيرية اعتمادًا كبـيرًا على الشّك بوصفـه آلية من آليات السيطـرة. كانت الحركة النازية تجعل أتباعهـا يشعـرون أنهم عرضـة للمراقبة طيلـة الوقت، الأمر الذي قادهم إلى حالـة دائمة من الخوف والشعور بالذنب.[1] يبـدو أن القاعـدة في الحـركات الجماهيرية هـي الحذر من جـيران المـرء وأصدقائه، وحتـى أقاربه. بـين الحين والحين، يتم اتهام أشخاص أبرياء عمدًا، ويُضحَّى بهم؛ لينطق الشك حيًّـا في الصدور. تعمد الحركة لإبقاء حدة الشكّ إلى ربط أي معارضة في صفوفها بالعدوّ الذي يهددها من الخارج.

(1) Ibid, p. 40.

وهذا العدوّ/ الشيطان الذي لا يمكن لأي حركة الاستغناء عنه، حاضر دائمًا وأبدًا. إنه يتآمر من داخل صفوف الحركة، كما يتآمر من خارجها. صوته هو الذي يتكلّم من خلال المعارضين. والمنحرفون عن الخط هم عملاؤه. وعندما يحدث أي خطأ داخل الحركة، فهو السبب. إن الشك واجب مقدّس من واجبات المؤمن الصادق، الذي يجب عليه أن يظل على حذر، طيلة الوقت من المخربين والجواسيس والخونة.

## 101

إن الوحدة الجماعية ليست محصّلة الحب الأخويّ الذي يكنه الأتباع، بعضهم لبعض، إن ولاء المؤمن الصادق هو للمجموع، الكنيسة، أو الحزب، أو الوطن، وليس لزملائه أتباع الحركة. إن الولاء الحقيقي في العلاقة بين الأفراد لا يمكن أن يظهر إلاّ في مجتمع يتمتع بقدر من الحرية واستقلالية الأفراد. لا بدّ أن يكون النازي المتطرّف أو الشيوعي المتطرّف على استعداد للتضحية بالأقارب والأصدقاء؛ لكي يثبت ولاءه لقضيته المقدّسة. تعدّ الحركة الجماهيرية النشطة روابط الدم والصداقة الشخصية إضعافًا لترابط المجموع. ومن هنا، فإن الشك المتبادل بين الأتباع ليس أمرًا متمشيًا مع قوة المجموع فحسب، بل يوشك أن يكون شرطًا من شروط هذه القوّة. يراقب الرجال الذين يعتنقون مبادئ صلبة، وينطوون

علـى مشاعـر قويـة، بعضهـم بحـذر، ويستمـدون قوتهم من هـذا الحـذر؛ إن الشك المتبـادل يخلق خوفًا متبـادلاً، ويربط الأشخاص بسلسلة من حديد تمنـع الفرار وتمنحهم القوة في لحظات الخوف(1).

جزء من التضحية بالنفس التي تتطلّبها الحركة الجماهيرية هـو التضحية بالنوازع الأخلاقة التي تقيد طبيعتنا البشرية. إن حماستنـا تستطيـع صنع المستحيـل، عندما تدعمهـا الكراهية والقسوة والطموح والجشع واحتقار الآخرين والتمرّد(٢).

## نتائج العمل الجماعي

## 102

إن التوحيد الكامل، سواء جاء نتيجة الاستسلام العفوي، أو الإقنـاع، أو القمع، أو الضرورة، أو العادة المتأصّلة، أو مزيج من هـذه العوامل، ينزع إلى تقوية الرغبـات والاتجاهات التي تنحـاز إلى الجماعة على حسـاب الفرد. سبـق أن رأينا كيف تقـوّي الوحـدة النزعـة إلى الكراهية، كما تقـوّي القدرة على التقليـد. إن الشخص الذي يتـم صهره في المجموع أكثر قابلية

(1) Ernest Renan, Antichrist (Boston: Roberts Brothers, 1897), p. 381.

(2) Montaaigne, Essays, Modern Library Edition (New York: Random House, 1946) p.3.

للتصديـق والطاعة من الشخص الذي لا يزال يتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي. صحيح أن قيادة الحركة تحرص على إبقاء الكراهية مشتعلـة، وتشجع التقليد، والقابلية للتصديق وتنشر الطاعة، إلا أنه من الصحيح، أيضًا، أن التوحيد، في حد ذاته، حتـى عندما لا تتدخل ألاعيب القيـادة، يقوّي ردود الفعل التي تعمل في اتجاه الوحدة.

قـد يبدو هذا، لأول وهلة، محيرًا. سبق أن رأينا أن معظم عوامـل التوحيد تنبع من الكراهية التي يحس بها المحبط تجاه نفسـه التي لا يحبّهـا، ووجوده الـذي لا يطيقـه. إلا أن المؤمن الصادق الذي ينصهر كليّة في مجموع كليّ متماسك لا يصدق عليـه وصـف المحبط: لقد وجـد هويّة جديدة وحيـاة جديدة. أصبح يعدّ نفسه واحدًا مـن الصفوة المختارين، الذين تحميه قـوى لا تقهر، حتى يحقق مصيره ويرث الأرض. وهذه العقلية الجديدة على النقيض تمامًـا من عقلية الشخص المحبط. إلا أن المؤمن الصادق برغم ذلك، يُبدي، على نحن متزايد، ردود الفعل التي تدل على صراع داخلي ونقص في الثقة.

**ماذا يحدث للفرد الذي يتم صهره في المجموع؟**

إن التوحيـد عمليـة تعنـي اختـزال شخصيـة الفـرد لا تنميتها. لكي يتم دمـج الفرد في المجموع لا بد من تحريره من تميزه الذاتي، وحرمانه من حرية الاختيار والأحكام المستقلة،

ولا بدّ من طمس الكثير من نزعاته واتجاهاته الطبيعية أو كسر شوكتها. كل هذه عوامل تنخر في الشخصية المستقلة. أما العناصر الجديدة التي يضيفها الصهر، العقيدة، الأمل، الكرامة، الثقة، فهي عناصر سلبية في جوهرها. ما يشعر به المؤمن الصادق من رضا وبهجة لا ينبع من مخزون من القوة والحكمة، بل من شعوره بالتحرّر من الأعباء التي ترهق وجوده المستقل. (نحن الألمان سعداء جدًا. نحن أحرار من الحرية)[1] يجيء إحساسه بالسعادة من كون نفسه لم تعد النفس القديمة والهجوم على شخصيته لا يؤثر فيه. وما لديه من قوة الاحتمال عندما يواجه عدوًّا لدودًا أو ظروفًا بالغة الصعوبة تفوق قوى الاحتمال عند الشخص المستقل. إلا أن هذه القوة تعتمد على الحبل السرّي الذي يربطه بالمجموع الكليّ: ما دام يشعر في قرارة نفسه أنه جزءٌ من هذا المجموع، وليس من أي شيء آخر، فإنه يظل خالدًا وصامدًا. وهكذا تتمحور كل طاقاته ومشاعره حول هذا الحبل السري. يصبح تطلعه إلى أقصى حد ممكن من الوحدة أقوى من الحنين الغامض، الذي يعمل في نفسية المحبط، إلى الإفلات من ذاته الفاشلة. لا يزال أمام المحبط خيار، فهو يستطيع أن يجد حياة جديدة، لا بأن يصبح جزءًا من كل فحسب، بل بتغيير بيئته والانغماس كلية في جهود

(1) من رسالة كتبها نازي شابه قبيل الحرب العالمية الثانية: انظر:
I. A. R. wylie, «the Quest of our Lives Reader's Digest, May, 1948, p. 2.

تستنفد طاقاته، أما الشخص الذي تم صهره في المجموع فلا يملك هذا الخيار. لا بد له أن يلتصق بشدة بالجماعة أو يسقط كورقة ذابلة من شجرة، وينتهي. من الصعب على القسيس الذي طرد من الكنيسة، أو الشيوعي الذي فصل من الحزب، أو الوطني المتهم بالخيانة، أن يجد راحة البال، وهو فرد مستقل. لا يمكنه الوقوف على رجليه، ولهذا فلا بُدّ له من تبني قضية جديدة والانضمام إلى مجموعة جديدة.

إن العضو الذي انصهر في الجماعة يظل، دائمًا وأبدًا، يعاني من شعور بعدم النضج وغياب الثقة في النفس.

## 103

من المثير أن نلاحظ كيف تؤكد الحركة الجماهيرية ما يحسّ به أتباعها من غياب الثقة في النفس. عندما تصنع الحركة العقيدة في منزلة تفوق منزلة المنطق، فإنها تشلّ حركة الذكاء الفردي. وبالإضافة إلى هذا، تعمل الحركة على جعل أتباعها معتمدين عليها ماليًّا عن طريق تركيز المال في يدها وإحداث نقص متعمد في ضروريات الحياة، فضلًا عن حشر الأتباع في مساكن جماعية مزدحمة وفرض العمل اليوم الشاق عليهم في المشاريع العامة. وما تفرضه الحركة من رقابة صادقة على الأدب والفن والموسيقى والعلم يمنع الأقلية المبدعة من القيام بأيّ نشاط إبداعيّ مستقل. والولاء الذي

يفرض فرضًا، للكنيسة، أو الحزب، أو الوطن، أو القائد، يعمل، بـدوره، علـى إبقاء الشعـور بالنقص حيًّا لـدى العضو. يصبح كل عمل مـن أعمال الولاء شبيهًا بمكبس كهربائي في النفس، يحتاج، باستمرار، إلى تيّار كهربائي من الخارج.

وهكـذا تتم صياغـة الأشخاص المنخرطين في الحركة الجماهيريـة على نحو يجعلهـم، دومًا، معدومـي الشخصية، معتمديـن على الآخرين، حتىّ عندما يحملون في داخلهم بذور شخصيات مستقلّة. برغم أنهم يصبحون بمنأى عن الإحباط القديم والظلامات القديمة، إلا أنهم يبدون كل سمات الأفراد الذيـن يتوقون إلى طمس أنفسهـم، والتخلّص من وجود يرونه معيبًا بلا أمل في الخلاص.